

قصص قصيرة:

مربط الفرس

د/ مرعي مدكور



الهيئة المصرية العامة للكتاب

٢٠٠٠

إهداء:

لـ «مروه»

واحة العمر.. ولجيلها..

مربط الفرس *

(*) للداخلي طه صاحب قصة «البئر» ، وفؤاد قنديل مؤلف «الرقص» بالملابس الممزقة» اللذين كتبا عن البهلول ..

وفجأة يهل فوق الساحة مثل غيمة سمراء تسد الأفق: عملاق فوق كتفيه داهية كبيرة يتضح سوادها كلما اقترب، يتمايل بها فى مشيته مثل جَمَل دخل بحمولته أرض المَجْرنة، لو شالها غيره قطَع النفَس وطَبّ ساكتا.. ومع اقترابه تظهر معالم الداهية؛ تتقدمها أرجلها الحديدية الثلاثة الموزعة على دائرة يحوطها إطار - حديدى أيضاً - ويتوسطها عمود حلزونى فى دوائر مرصوصة فوق بعضها مثل زور بهيمة مذبوحة، ينتهى من أسفل؛ وبعد حوالى شبر من نهاية الأرجل الثلاثة؛ بكتلة خشبية مغروزة فى قلب الدائرة تحوطها الأرجل كأنها تضمها إلى حضنها فى أمومة حانية.

وما أن يتوسط أرض المجرنة، بهجَمته؛ حتى تصيح أم فايز؛ التى تسير خلفه مباشرة؛ زاعقة وهى تشده من ذيل جلابيته الواسعة: «هنا يا محنروب»، فما يكّذب خبرا، ويتوقف، ويرفع الداهية السوداء من على كتفيه فى بساطة وسهولة ـ السهولة نفسها التى يرفع بها غيره حزمة عيدان قمح ـ ويهبدها واقفة على الأرض لتنغرز إحدى أرجلها القريبة من قدمه فى أرض المجرنة الصلبة المكنوسة والمرشوشة محدثة رنة وشخللة خفيفتين، ويبقى هو متصلبا فى وقفته بخشبه الجامد وطوله المفرط ورجليه الواقفتين على الأرض مثل مرزبتين كبيرتين، وقد ضم يديه وركزهما فى خاصرتيه، ومد وجهه جهة الأمام فبرز؛ فى الفراغ؛ فمه الكبير المفتوح أغلب الأحيان لتظهر أسنانه ضاربة بالإصفرار وعريضة مثل أسنان جحش، وخيطان هلاميان ينسابان من جانبى الفم المفتوح على آخره.

يرفع ذيل جلابيته من الخلف ويمسكه بأسنانه؛ فتروح عيون النسوة اليه: ضخم الجثة، وجهه لا يقول

شيئا، عيناه الكبيرتان كعينى بقرة مثبتتان على لا شيء أمامه، تلمعان تحت جفنيه المرتخيين ولا تركزان على شيء بعينه، وأذناه طويلتان مثل أذني خفاش، وشعره ـ الذى لم يمر به مشط ـ ناعم وملفوف فى دوائر متداخلة، وفمه الكبير الواسع مفتوح عمّال على بطال؛ يخرج منه لسانه نصف خروجة ويتدلى فوق أسنانه السفلى وشفته التى تتقدمها مثل قطعة لحم حمراء.. أما ساقاه الضخمتان صُلبتان كعِرْقى خشب؛ تحملانه عندما يهتز فى مشيته ويتمايل كأنه يتعلم المشى: يرفع إحدى قدميه وينقلها إلى الأمام وهو يميل معها بجسمه، ثم يرفع الأخرى ويضعها ببطء ـ أيضًا ـ أمام الأولى، وعينه عليها كأنه يهم بتعدية مسقى صغيرة، فيبدو عندما يمشى مثل «عمود سوارى»، صدره مفتوح؛ فى عز البرد أو فى صهد الصهد؛ لا صقيع طوبة القارس يفت فى عظامه ولا نار جهنم الحمراء التى تبخّها الشمس صيفا تؤثر فيه، يفتح فمه على آخره ويرفع منكبيه وهو يأخذ نفساً عميقاً ملأ صدره هواءً فيمتد ـ

الصـدر ـ للأمـام ويرتفع لأعلى فـى وقت واحـد، بعـدها يُخرج من منخاريه؛ ومن فمه المفتوح على آخره؛ نفساً طويلاً كأنه ما تنفثه مدخنة طاحونة الشيخ رفعت من قلبـهـا وهى تزعق فى دقـات رتيـبـة «طـش.. طش.. طش».. لم يضبط أحد وجهه يضحك، ولا يصرخ، الكل اعتاد صمته الذى يبلغ ـ لمن لا يعرفه ـ الخرس، حتى الصغار أصحاب المؤخرات العارية؛ وهم يدورون حوله ويضربونه على مؤخرته بأكفهم الصغيرة أو بعيدان حطب أو حتى رمية بقطع طوب أو حجارة صغيرة وهو متصلب فى وقفته، يفتح فمه على آخره ويقفله، ويخرج صوته الذى يختلط بين الكلام والعواء: «با.. ببب.. با» ويضرب بيديه الكبيرتين فى الهواء أمامه مثل سبّاح ماهر يجدف.. والنسوة يفشخن حنوكهن ويبلعن الريق وهن يتفرجن على خشبه الجامد وتقاسيمه؛ بعد أن غاب الرجال فى بلاد الغربة واقتصرت طلأتهم على المواسم.

ترمى أم فـايز مـلاءتها على طرف حصيـرة من الحصر المفروشة؛ حصيرة فى ذيل حصيرة، وملاءات

سراير، وبطاطين جيش قديمة، وألحفة عرائس، بعدها تخلع شيشبها بتوكته اللامعة التى تزين جانب كل فردة، ثم تقعد مريحة جسدها الممتلىء، وتنتظر تغيير ريقها وشرب كوب شاى.

وقتذاك تكون واحدة من النسوة؛ غالبا صاحبة الدور الأول؛ انهمكت فى إشعال وابور جاز وجهّزت بيضتين وقطعة زبد لزوم فطور أم فايز، ويكون صغار كثيرون قد ضربوا حلقة حول الفرش الذى يتوسط المجرنة؛ وهم يتحنجلون ويدورون ويصيحون فى نغمة واحدة: «الفتّالة جَتْ.. الفتالة جت..» ويمّنون أنفسهم بجمع ما يتطاير من بين ما تحدفه أصابع أم فايز بعيدا عن الفرش، والتهامه مباشرة دون طبخ أو غَرْف.

ينشرح قلب أم فايز من صيحات الأطفال، وتعتبرها إعلانا يلف داير الناحية عن بدء موسم الفّتالة وصاحبة الفتّالة، وتروح عيناها إلى المؤخرات العارية لهؤلاء الصغار، تختلط فيها بقايا الخراء بالذباب المتجمع عليه فى كتل رمادية كأنها طرد نحل عسل على جريدة

نخل، فى سرعة تسد فتحتى أنفها، وتمصمص شفتيها عندما تدقق فى وجوههم وتجدهم سحنة واحدة، لا تستطيع أن تفرق ابن زيد من ابن عبيد، صحيح «يخلق من الشبه..» ؟!! لكن بهذا الشكل ؟!! وجوههم متشابهة كأنها دقة واحدة فى ماعون واحد: قامات قصيرة مدكوكة، ورؤس صغيرة؛ الرأس منها مثل كرة شراب بالنسبة لأجسامهم؛ لكنها مسطّحة من أعلى مثل «بريزة» ممسوحة، وعيونهم معمّصة وشبه مقفولة ومسحوبة من الجانبين، وآذانهم خفاشية، أما أنوفهم فتبدو مبتورة من أسفل وواسعة الفتحتين.

من الجرى والتدافع سقط أحد العيال إثر تدافعهم على عُقب سيجارة رمته أم فايز، وتزحلق على الحصير حتى طوّحت قدمه كوب شاى اندلق عليها، مسكته من قدمه القصيرة العريضة وسحَبتْه عليها مشمرة جلابيته المرّقعةِ عن باقى جسمه الأسفل؛ لتظهر «حمامته» متدلية، وغليظة، وطويلة طولا وتُخناً لا يتناسبان مع سنه الصغيرة، تشده من قُلفته وهى تكاد تروح على

ظهرها من الضحك: «بتاع حمار يابن المشرومة!!»
وتقلب قدمه المرفوعة لأعلى بين يديها مدققة فى
الفجوة الواسعة بين إبهام والقدم والإصبع المجاور له،
وعندما يسقط بصرها على شرخ مؤخرته بين وركيه
ويتطاير الذباب من عليها؛ جماعات؛ جماعات؛ تقرف
وتسد فتحتى أنفها مرة أخرى وتطْلقه؛ لاعنة سنسفيل
آبائهم الذين هجّوا وتركوا هذا الواغش. وتكون - حينذاك
- قد رمت رأسها إلى الوراء فى حركة مباغتة مُزيحة
خصلات شعرها الأصفر، فضّي المنبت؛ اللامع
والممشط لتستقر بجانب المقصوع على جانبى وجهها
ذي العذوبة الذابلة، وتمر باليدين؛ بعد أن تنفضهما
جيدا؛ لتسوّى الشعر الطويل الكثيف المفروش وراء
ظهرها، بعد ذلك تنظر نحو الشرق فاردة ذراعها
ومباعدة بين أصابعها لتقيس علو الشمس، ثم تناوله اليد
الحديدية ذات المربع المفّرع من الوسط باتساع رأس
العمود الذى يشبه زور بهيمة مذبوحة؛ والذى ينتهى من
أعلى بمربع مفّرغ أصغر قليلاً من مربع اليد المفرغ،

وعلى الفور يضع الأنثى فى الذكر، ويدفع اليد لتدور عدة دورات مسرعة بحركة واحدة، وعندما تستقر الكتلة الخشبية؛ التى ينتهى بها العمود من أسفل فى الأسطوانة الحديدية التى تنتهى من أسفل - أيضا - بشبكة ذات ثقوب رفيعة؛ يثقل لفّها.. فيتفل هو فى يده فى صوت مسموع؛ تتطاير معه قطرات من لعابه تستقر على وجه أم فايز الجالسة تحته مباشرة، فتمسح وجهها فى تأفف مشيحة عن وجهة؛ قائلة: «غور يا شيخ» ويستمر فى لف اليد، ومع كل لفة تظهر خيطان الشعرية بيضاء ضاربة بالصُفرة أسفل الإسطوانة وتطول جهة الحصير المفروش أسفلها كلما أدار يد الفتّالة، تروح أم فايز للأمام فيترجرج صدرها وهى تبسط ذراعها تحت أشعة الشمس الحانية لتقطف الفتايل النازلة بأصابع رشيقة مدربة؛ وتنشرها حفنة على داير عزمها وهى ترجع بجسدها للخلف مع كل قطفة ونترة، لتستقر هذه الخيوط فى أشكال مجمّعة على الفرش: عصافير/ وجمال/ وركائب/ وعرائس/ وأحصنة/ وأشكال لا معنى لها.. ومع بعض الخيوط

الصغيرة التى تستقر بعيدا عن الفرش؛ تتدافع عشرات الأيدى الصغيرة للعفاريت الصغار بمؤخراتهم العارية، وتتـزايد هذه الأيدى وتتـضـاعف مع مـرور الوقت، ويتزايد معها النقار، والفَزْع، والنطر، وسب الأباء الذين تركوا هذا الواغش دون أكل أو تربية.. ساعة القيلولة تكون آخر قطعة عجين لصاحبة الاستفتاح تندّك فى الأسطوانة الحديدية، وتكون أم فايز هدّها التعب وتتطلع إلى الراحة بعض الوقت حتى تجّهز من عليها الدور نفسها، تسحب بيدها اليسرى منديلها من صدرها وتمسح العرق الذى يشّر على وجهها بغزارة، وتتمشى عيناها فى الوقت نفسه - على جسده الذى يشّر عرقه عليها، تمسحه بعينيها من أسفل إلى أعلى فترى عرقه يسيل؛ أيضا؛ بغزارة فوق جبهته وفمه وانسال سيورا اتخذت مجراها إلى أسفل، وما أن يصل عنق الكتلة الخشبية إلى أول الأسطوانة الحديدية معلنا انتهاء ما فى بطن الفتّالة من عجين؛ حتى تنقطع خيوط الشعرية النازلة، يكون هو مايزال يعافر فى لف اليد التى توقفت تقريبا،

تعرف ذلك من هبد اليد؛ ومحاولته المستمرة لفها حتى تكاد الفتالة تقع على رأس أم فايز، تسندها - وقتذاك - بيد وتضربه باليد الأخرى على رجله القريبة منها؛ المحشورة تقريبا بين وركيها وهى تشوف شغلها؛ طالبة منه أن يسكت، وهو لا يصرخ، ولا يستغيث، ولا يرد الضربات المنهالة عليه، ولا يحاول حتى أن يخلص نفسه.

تقترب من عليها الدور، وتنحنى على مقطفها؛ لتفرغ الدقيق فى ماجور العجين، وتصب عليه الماء مع قطعة خميرة صغيرة من عجين زميلتها السابقة، ويجد هو نفسه دون إرادة قد توّقف عن لف اليد، ويحلق فى النهر الذى يشق فتحة الصدر من أسفل، وما أن تحس صاحبة الدور - وهى منحنية - ببصته ولهيب عينيه اللتين تندّب فيهما رصاصة؛ وبعينى أم فايز الناريتين مراقبة للوضع؛ حتى يحمّر وجهها وتزوم وهى تضربه فى صدره بحنّيه وهى ماتزال محنية : «يو ووه!» .. تكون أم فايز لفّت يديها حول ساقه تخمشه بأظافرها مثل قطة

شرسة، وتضربه بقبضتها، وتعضه بأسنانها فى سمّانة رجله القريبة من فمها، وسكوته وبحلقته المستمرة تثيران غيظها، وتجعلاتها تزيد من قرصها وخمشها وضربها، ولا تهدأ إلا بعد أن تكون صاحبة العجين قد لمّت نفسها، وقتئذ يصلب هو الآخر طوله ويستمر؛ كما كان؛ فى وقفته ملّوحاً بيديه وهو يقفل حنكه ثم يفتحه على آخره كمن يلوك شيئا كبيراً بداخله، ويرفع ذراعه فى الهواء كأنه سيهوى بها على أم رأسيهما معا؛ أم فايز وصاحبة العجين؛ وهو يتهته تهتهته بين الكلام والعواء : « با .. ببب .. با ..» وريالته تسيل على جانبى فمه؛ المشروخ على آخره؛ فى خطين هلاميين لزجين، وتكون صاحبة الشعرية قد بدأت جمعها فى مقطفين كبيرين بعد أن جففتها الشمس اللاسعة، وتنادى عليه مشيرة له بحمل أحدهما؛ فينتع أحد المقطفين فوق رأسه، ثم تسند عليها مَن حلّ عليها الدور لتشيل المقطف الآخر، وتسير وهو خلفها فى طريق بيتها، ونفسها تحدثها وعقلها يروح هنا وهناك، وابتسامة عريضة فوق

وجهها، فتعبث يدها؛ الأخرى غير التى تسند المقطف؛ بطرف شالها لتدارى الإبتسامة التى ظهرت على فتحة الشفتين واتساع نغزتي الخدين، وتلتفت إليه وهو يتهادى خلفها وقعر المقطف المملوء بالشعرية الناشفة يكاد يغطى رأسه؛ المبطط من أعلى؛ حتى وصل إلى قرب العينين الواسعتين مثل عينى بقرة، وتشكشكها الفكرة التى راودتها وأججّت عاطفتها الفوّاره، يلّح عليها الجسد الجائع والمتشقق من قلة الرى، فتمّنى نفسها بما افتقدته منذ غاب رجلها؛ مثل أغلب شباب القرية؛ منذ سنين ليّطل أياما كل حول.. فى قطعها المسافة إلى بيتها تبدو البيوت الطينية الواطئة مثل ظهور خراف نائمه فى صفين طويلتين لا يفصل بينهما سوى درب صغير لا يدخله جمل، ولا يتسع لمرور أكثر من اثنين بجوار بعضهما فى المسافة بين فتحة كل بيت، والعجائز أمام هذه الفتحات غالبا: رجال تكاد تنسحب أبصارهم وتكر مشت جلودهم وانهدت قواهم؛ تجمعوا بظهورهم المقّوسة يلعبون السيجة؛ ونساء قعيدات أمام دورهن وكل منهن

تمسك عصا طويلة بين أصابعها وبين الحين والحين تحركها وهى ذاهلة عما حولها، والكتاكيت - دنيتها وعالمها الواسع - تتقافز وتنقرها فى إحدى يديها أو تقفز إلى وجهها بين الحين والحين؛ فتمسكها وترميها بجانبها فى هدوء.

فى هذا الدرب الطويل الملتوى كثعبان؛ تكون المعيشة مكشوفة غالبا؛ يمكن للأذن أن تسمع ما يدور داخل البيوت، والعين تحكى للعين..

تخطت قعيدات أمام دورهن، وكادت تدهس كتكوتا أخضر، وركنت يدها على جدار بجانبها حتى لا تقع، وعند فتحة بابها نخّت و دخلت، وفعل مثلها، ثم واربت بابها خلفهما.. فى دقيقتين كانت طاسة البيض بالزبدة طشطشت ووضعتها بينهما، تمّد يدها باللقمة وتنظر إليه، وهو يدفع اللقمة الكبيرة بيديه الإثنتين ويدخل أطراف أصابعه العشرة داخل فمه المفتوح، غير حافل بشىء، ويخرج من منخاريه نفساً مسموعا، تنظر إلى «بضاعته» المكشوفة وهى تضع أمامه كومة من «البتّاو»، وهو يحنفن اللقمة إلى فمه: جبناً وسمناً وبيضا وكسرات بتّاو..

ووحدتها تحرقها فتبلع ريقها بصوت مسموع أيضا، تنسحب للداخل وتغّير ملابسها، وتبقى على سنجة عشرة، وبدافع قوة هائلة فى جسدها تسيطر عليها تزّم الباب وتعود إليه لتشده من يده، تمسح فمه ويديه من السمن المعكوك عليها، وتشّب على مشطى قدميها وهى تقف أمامه ملتصقة بجسده كأنها تقيس طولها بطوله وعيناها تتمشى عليه فى شراهة، تجد نفسها تتصرف كأنها الرجل وهو الزوجة، تدارى خجلها وهى تتشبث بذراعيه، وعندما تشعر بسخونة تحرق بدنها تسحب جلابيتها لأعلى وترفع ذيل جلابيته فى الوقت نفسه، ويقشعر جسدها فتنطرح عليه بهجوم من خمش وضرب على الصدر اللاهث، ويقعان على الأرض ولا تدرى بنفسها إلا وهى تنتفض مثل عصفور بين فكّى أسد، وعظامها تطقطق تحت ثقله؛ وهو بارك فوقها بخشبه الجامد ومؤخرته العارية، وهى تروح وتجىء إليه بشكل منتظم، وهى متلذذة تشعر بأنها تأكل «نسيرة» لحم

حمراء لا تروح حلاوتها من الفم وتترك آثارها بين أسنانها، وما أن تنطفئ النار حتى تزيحه من فوقها، وتسحب له؛ من الصندوق؛ جلابيته «صينى» بشوكتها.. بعدها تشعل الكانون وتطّش السمن وتضرب بيضتين، ثم تطلب منه أن يسبقها بالغداء لأم فايز، وما أن تطمئن على استوائه فى الطريق إلى المجرنة والصينية الكبيرة على رأسه وعليها الأكل؛ حتى تكنس بيتها وترشه من ماجور تحت الزير، ثم تغتسل، وتمشط شعرها، وتحبك ربطة المنديل فوق جبينها؛ تاركة قُصة لامعة متدلية فوق الحاجب الأيمن، وترجع إلى المجرنة تنط من على الأرض؛ حاملة برّاد الشاى وكوبين زجاجيين فوق صينية صاج ملونة.. تكون أم فايز مستريحة فى ظل نخلة على جانب المجرنة، وهو بجوارها فوق الأرض على ظهره وذراعاه تدليا إلى جانبه، لا تدرى إن كان فى سابع نومة أم يتنمّس من تحت لتحت على البنات والنسوة اللاتى ضربن حلقته، وما أن يطّف خيالها حتى تتلقفها أم فايز وهى ترفع

عينيها المليئتين خبثا؛ ببريقهما الذى يمكن تفسيره على أكثر منن وجه: حسد/ غيرة/ شماتة/ قرف/ قلة مقدار، وتصطدم بعينيها المكحولتين فتلّسن عليها بالكلام من جانب فمها: «عاشرك يا قحبة!!!» فيحمر وجهها خجلا وتنظر إلى الأرض، وتطبق بأسنانها على شفتيها السفلى لتغطى ابتسامة خجلى وهى تضع فى يدها أجرة الفتّالة وأجرتها على جانب، وأجرته فى جانب آخر، وتكون عند ذاك قد ضربته بقدمها فيفتح عينيه ويطبقهما فى سرعة، ويتثاءب وهو يحك رأسه المسطحة من أعلى، ثم يلم رجليه ويقفز رامحا؛ وفمه مفتوح على آخره، وصوته يجيئ بين الكلام والعواء: «با.. ببب.. با..» وتغرق النسوة على أنفسهن فى الضحك وهو يختفى عن الأنظار..

ساعات تجده يسير فى حالة تشبه النوم؛ وقد لفّ عمامة بيضاء حول رأسه، ومرة يضع عصا خلف عنقه بامتداد كتفيه مثل نير ساقية وشعلق فيها يديه ومشى يخُب فى «مقطع» سكروتة، وساعة يطّف على قعدة أمام

دكان سعد غزال؛ بجلابية جبردين و«لاسة» مربعات لامعة حول رقبته، وهو يأخذ فى وجهه مارا عليهم، يتشعلق فى كتفيه شابان ويجذبانه إلى القعدة؛ فيثنى ركبتيه وينزل عليهما مثل قاعود حتى تلامسان الأرض، ويقرفص، ويضغط على إحدى ركبتيه بيد، وينحنى إلى الأمام فاتحا فمه على آخره وممسكا باليد الأخرى عود الغاب شاداً نفسًا طويلا؛ تصهلل معه الجوزة وتحمّر نارها محدثة شعلة صفراء، يسارع القريب منه بالنفخ فيها لإطفائها ويسحب منه الجوزة لتلف على من عليه الدور.. يطلبون منه بعدها أن يضحك؛ فتطرقع ضحكة مصنوعة تخرج من فمه المفتوح دون أن تظهر ملامح الضحك على وجهه، وكما بدأت الضحكة بطلب تنتهى - بعد أن تطول - برفسة فى بطنه أو شلّوت على مؤخرته المرفوعة فوق كعبيه، ينهى الضحكة فجأة - أيضًا - ويبقى فمه مفتوحا دون تعبير.

يمد أحدهم إليه ماعونا به مياه ساخنة؛ عليها رغوة

صابونة؛ فيرفعها إلى فمه ولا يتركها إلا بعد أن يلحسها بلسانه، يراهن رابع وهو يمد إليه سيجارة ملغومة بالحشيش، ويضعها بين أصبعيه، ويشعلها يشفط منها شفطاً متواصلاً؛ حتى تلسع نهايتها اصبعيه فيصرخ وهو يرميها أمامه لتسقط على أحد الجالسين؛ الذى يهّب وهو يلعنه ويلعن أهله والكلاب الذين رموه علينا..

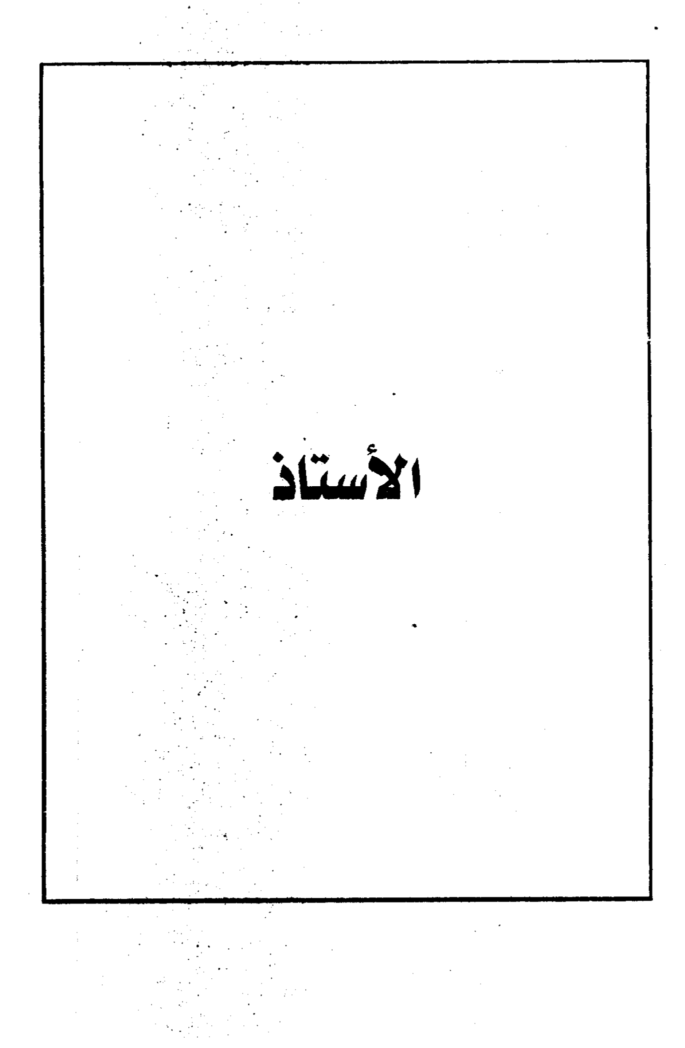
يتنافسون عليه فى فِرَقْ مقاومة دودة ورق القطن، والفائز به يجعله مُسخة فرقته، يحمل راية الفرقة فى طلعتها كل صباح، وفى رجعتها مع العصارى، وفى الغيطان يبقى - على رأس أحد الحقول - تحت شجرة صفصاف بجوار بلاليص مياه الشرب، وعندما يعطش الأولاد ينادون عليه فيرفع أحد البلاليص على صدره لتشرب الفرقة، بعدها تتسلى عليه البنات والنسوة اللاتى يملأن البلاليص.. الغريب أن كثيرات أصبحن يطلبن العمل مع الفرقة لتوفير مياه الشرب للأنفار، وعندما يهلّ مهندس الزراعة؛ يسرع هو منحنيا بين عيدان القطن حتى يستقر وسط الصغار، فيبدو فى انحناءته فى

حجم ضخم يغطى على من فى جانبيه من الأولاد، ويصيح بين كل ثانية وأخرى بأعلى صوته: «با.. ببب.. با» ويده مرفوعة بشجرة قطن كاملة اقتلعها من جذورها، وعندما تجيئه الرفسة من الخلف ينكفئ على وجهه ثم يحبو على يديه ورجليه عدة أمتار، بعدها يطلق لنفسه العنان حتى يختفى عن الأنظار، وتدور محاولات وشفاعات لإثناء مهندس الزراعة عن خصم يوميته؛ لأنه - كما يقولون - على باب الله..

مرة شاهده المهندس أثناء مروره؛ وواحدة تعتليه فى ظل الصفصافة بجوار بلاليص مياه الشرب المجهزة للفرفة، وتمرمغ نفسها فوقه، وعرقها مرقها، وظلّ يضربهما بكرنافة جريد، حتى أزاح هو المرأة من فوقه فولت مسرعة ومولولة لتختفى فى حقل ذرة قريب، وظل هو يجعر ويتهته بصوت بين الكلام والعواء: «با.. ببب.. با..» حتى غاب عن الأنظار..

فى صباح ذلك اليوم؛ أيقظ القرية زعيق، وصياح، ونواح، وجلبة كبيرة، وهرولة جهة الجامع الكبير،

ازدحمت الرحباية أمام الجامع بنسوة مجتمعات فى شكل دائرة حول شجرة الجميز التى تتوسط المكان، ودهشة شديدة مرسومة على الشفاه المفتوحة، وذهول، وهمهمات تسرى وسط الحشد، والعيون معلقة بالجسد العملاق المتدلى والمعلق بحبل من رقبته فى أحد فروع شجرة الجميز، وحنكه مفتوح على آخره، لسانه الخارج منه يتدلى أمامه إلى أسفل مثل طحال عجل جاموس أمام جزار.. فجأة؛ سكتت الأصوات، وتوقفت الهمهمات عندما ظهرت أم فايز متشلشلة وقد شقت طريقها وسط الجمع الملتف حول الشجرة، وقفت أمامه، ورفعت رأسها لأعلى، ومدت يدها جهة الجسد المعلق رافعة لأعلى ذيل جلبابه المطرطش بالدم؛ ليكتشف الجميع أن عضوه مبتور من آخره، والدم ما يزال يشخب.. وسرعان ما سرت فوضى واضطراب، وهياج ارتفعت معه الصرخات تقطّع نياط القلوب، والجسد العملاق ما يزال يتطوح جهة اليمين وجهة اليسار.



الأستاذ

يقابلك بـ: «السلام عليكم»

ويودعك قائلا: «فى أمان الله»..

هكذا؛ بتحديد، وتفخيم، وقَطْع.. وبين اللقاء والوداع نسمة خفيفة، رقيقة، ندية، مثل تلك التى «تلطش» فى صيف قائظ..

يقتلك صمتا، وهدوءا، ورقة، ووحدة، وانسحابا من التوترات فائقة الحد، والرغبات، والأمنيات، والصراعات بأشكالها وألوانها.. تفشل - حتما - أن تجرّه لموضوع؛ أى موضوع؛ حتى ولو من باب الاستفسار عن عدم لبسه زيّه الوطنى: «غترة» و«دشداشة»!!..

والنتيجة هى النتيجة؛ تفويت الفرصة حتى على أقرب المقربين من الأخذ والعطاء، والضن حتى بالكلام..

ويمضى - كعادته - فى صمته، تغلّفه شياكته وأُبهته: بدلة كاملة فى الشتاء، وفى الصيف قميص نصف كم، لونه لون بنطلونه، وبدرجة أفتح، تظهر على أكمامه كَسْرة المكواة، مستقيمة، وحادة كشفرة سيف، وكرافتة؛ مرسومة رسما؛ تتدلى من العنق، فى تناغم لونى وتشكيلى نغبطه جميعا عليه، ونحاول تقليده، والنتيجة لا تكون النتيجة نفسها حتى مع نفس الألوان والأشكال..

نحاول كسر خلوته؛ بعد العمل؛ نطُب عليه فى «المقعد»، الذى اكتراه من الخالة آمنة - أم محمد - لكنه يقابلك على الباب، وعندما يصل الأمر غاية الإحراج؛ يشعل «السبرتاية» لتشرب شايا، ثم: «مع السلامة»، بعدها يغلق بابه ولا يفتحه إلا صباح اليوم التالى وهو فى طريقه إلى المدرسة.

ورغم المحاولات المستمرة لجيران، وأولياء أمور، وتدخلات شخصية من المدرسين أنفسهم لشَبْكة فى دروس خصوصية؛ أو حتى مجموعات مدرسية؛ إلا أن الرفض معروف مسبقا، وكلمته واحدة:

«المدرسة فيها الكفاية»..

حالتان وحيدتان يخرج فيهما من قمقمة؛ الأولى: عندما يكون الناس على موجة واحدة منصتين إلى الزعيم منذ أن يبدأ خطابة قائلاً «أيها الأخوة المواطنون» ساعتها تنتابه حالة هوس؛ وسكون، ونشوة، وعشق، وسعادة طاغية، ووله يكاد يصل إلى حد الذوبان، وفي الوقت نفسه يكون القلم - في يده - يخط على الورق أمامه عبارات بعينها، ويضع تحتها خطوطا يتحدد عددها ودرجاتها حسب الكلمات، وحسب درجة تفاعله معها، ويظل على هذه الحالة عدة أيام..

الحالة الثانية: عندما يحضر له؛ في الفسحة؛ محمد ابن الخالة آمنة، يُجلسه على كرسى فى جواره، ويغيبان - معا - عن ما حولهما فى «وَدْوَدة» وكتالوجات متعددة ومتنوعة ورسومات لسيارات نقل، وأجرة، وأتوبيسات، وجرارات زراعية، وفناطيس مياه، وموتوسيكلات.. يا سبحان مغير الأحوال، راحت أيام كان يدور فيها محمد بصدره المكشوف من فتحة جلابيته «الجبردين» الواسعة، والتى لا تستره تحتها فانلة أو قميص، وطاقيته

بحافتها المبرومة إلى أعلى، وهو على حافة الترعة؛ بجانب جاموستهم؛ يشّكل بالطين عربات متنوعة، الخالق الناطق مثل العربات التى نراها على السكة الجديدة، وهو يدفعها لتسير بضع سنتيمترات، وينتشى بعدها ويخرج من فمه أصواتا متعددة كأنها كلاكسات قادمة ورائحة على الطريق..

تتسع ابتسامة محمد وهو يسمع منه أنه كتب باسمه خطاباً إلى «شركة النصر لصناعة السيارات «للإستعانة بموهبته فى إعداد التصميمات حتى قبل دخوله كلية الهندسة ونظل ننتظر فى لهفة وصول جواب الشركة لاستدعاء محمد، وعندما يتطوع أحدنا بسؤال «بلوكامين» تليفون العمدة عن الجواب، يشخط البلوكامين وينطر، ويفزع فينا؛ بقلة حياء؛ قائلا»:

- قولوا له «... «أمك يا محمد!..

تنتهى الفسحة؛ ويخرج محمد من بوابة المدرسة؛ ويرجع هو إلى طبيعته الصامتة، يصرخ كل منا فى نفسه:

- يا هووووه.. رجل فى زماننا لا يناور ولا يداور ولا حتى يصرخ..!!!

نحاول جره إلى قعدة حشيش، أو نميمة، أو حتى سيرة نسوان، ويقتلنا عشرات المرات بصمته، وهدوئه، وثلاجة أعصابه..

- أُخرج عن طورك مرة يا أخى..!!

وللمرة الأولى عندما خرج كانت الخرجة، خرجة بمعنى خرجة..

فاجأتنا مكالمته من المستشفى الأميرى فى المركز؛ لأخذ أجازة، وردّ على استفساراتنا المُلحة بصوته القاطع:

- بسيطة.. مجرد تحليلات..

ولما طالت المدة اقتحمنا - رغما - عالمه الجديد، وجدناه على سرير أبيض، وكأنه من عالم آخر: تبدو عيناه نفاذتين وغائبتين عن ما حوله، وكأنهما مسحوبتان إلى دنيا من فزع، وقلق، وذعر، واضطراب، وخوف، وضعف..

استقرت عين واحد منا على لافتة فوق سريره، مكتوب عليها: «قسم القلب.. العناية المركزة»، وسأله عن الحال، غمغم - وقتها - من بين شفتيه بكلمات لم نسمعها..

أصبح المستشفى الأميرى سكتنا اليومية، امتلأت حجرته بعلب الشيكولاته، وباقات الزهور، ومن كثرتها أصبحت؛ باقات الورد؛ مرصوصة خارج عنبره وممتدة على جانبى السلم المؤدى اليه حتى مدخل المستشفى..

بعد أيام، طلبنا مدير المستشفى، فاجأنا قائلا..

- هذا الرجل قتل نفسه، أربعة شرايين دفعة واحدة تحتاج تغييرها، وكان يعرف حالته ويقاوح!!..

وطلب أن نخبر أهله، قلنا له: بيننا وبينهم عدو، وسفر، وصليب أحمر، وإجراءات..

ووقّعنا على أوراق كثيرة قبل أن يُدخلوه غرفة العمليات..

وهو على الترولى، فى طريقة إلى غرفة العمليات، أشار لى بإصبعه، مِلْت عليه حسب طلبه، همس فى أذنى:

- صفّى حساب «المقعد»، والمفاتيح تسلّمها للخالة آمنة، واترك لها مشتملات السكن كلها، والأوراق الأخرى كلها لمحمد، وانتبه له.. أرجوك..

قلت له وصدرى يعلو ويهبط، وصوتى يخنقه البكاء:

- سليمة إن شاء الله.. الله كريم..

وجدته - وقتذاك - يرفع عينيه اللتين اتسعتا ولا تستقران على هدف محدد، وقد انطفأ بريقهما، وكأن صوته يأتى من عالم آخر:

- اسمع الكلام.. أنا طالع فوق..

وسقط رأسه بجانبه على المخدة، وخرج السّر الإلهى..

خرْجته كانت خرجة ملوكية: طبل، وزمر، وزغاريد، وخشبته تقف أمام كل بيت، ويقابلها الناس بالدعاء، والرحمة، والعيون تسح بالدموع، وبكائيات حزينة تنتقل من امرأة إلى أخرى:

يلبس البالطوعليه خايل

وسط التلامذه يعدل المايل

يلبس البالطو عليه يخيل
وسط التلاميذ يعدل اللى يميل
ما أحلى فـ يمينه لبسه الخاتم
خشمه فصيح ويكلم الحاكم..

***

لم يقتنع محمد بفتح «المقعد» إلا بعد أسبوع كامل، هالنا أنه يعرف الصغيرة والكبيرة فى عالمه، انفكت عقدة لسانه، وهو يسحب - على طرف منديله - دموعه النازلة؛ ونحن نَجْرد محتويات «المقعد.. بدأنا بدرج مكتبة، ومحمد يرفع المشتملات و احدة واحدة:

- حزام من خيوط شبَكة صيادين، به قطَع صغيرة من الرصاص مثل حبات الترمس، لفّته أُمه حول وسطه منذ سنوات؛ أيام اللّمة؛ يمنع السحر ولو كان مكتوبا على ظهر قرموط فى عرض المالح، لم ينفك عن وسطه إلا مع خرْجته الأخيرة.
- عقود مشاركة متعددة: زراعة، ٥ بقرات، عدد كبير الأرانب عندما يقصده أهل العشم، وعندما يجئ

أحـدهم بالمكسب يتـركـه لهم ويكتـفى برأس المـال، بشرط أن لا يـخبر أحد غيره.. (يؤكد مـحمد انه كان يقـــوم بالإعطاء والأخـــذ نيـــابة عنه فى كل هذه المسائل..)..

- تقارير طبية من د. حمدى السيد؛ بتواريخ متباعدة؛ تفيد أن قلبه يحتاج راحة تامة وتغيير أربعة شرايين دفعة واحدة وبأقصى سرعة.
- صور فوتوغرافية كثيرة فى ألبوم قديم، تتصدرها طفلة فى حوالى الخامسة (قال محمد إنها شقيقته الصغرى، وكان ما يعذبه انه لا يعرف مصيرها الآن، ولا حتى أمه، انقطعت صلته بهم منذ أن كان فى بعثة تعليمية على نفقة الحكومة المصرية، وبعد ٦٧ لم يستطع العودة ، كومة الجوابات هذه - يشير محمد - أنت عبر الصليب الأحمر، وأقسى ما كان يمزقه أن أوامر كلاب الاحتلال فرضت على أصحاب الأرض عدم إغلاق أى باب على ساكنيه من العرب، يبقى هكذا نصف مفتوح ونصف مقفول ، تصوروا،

تبـقى فى بيـتك وفى الوقت نفسـه ـ كـأنك فى الشـارع!!) .. وابيضّ الورق أمـامنا ونحن نجـرد، نضع هذا هنا، وذاك هناك، وتكونت ـ مرة ثانية ـ جبال الورق أمامنا..

ومحمد يقلب الأوراق واحدة بعد واحدة بحرص شديد وفى دقـة مـتناهيـة، وحـيـرتنا شـديدة؛ فكيف تصل الأمانات إلى أهلها!!

* * *

الشلاقمة*

* ورد ذكرها منسوبا إلى «شلقم اللئيم» أول من حطّ بالبقعة فى ظل شجرة سنط عتيقة مائلة على ترعة صغيرة؛ بعد أن فج رأس مخدومه بكتلة حجرية وتركه يشخب دما..

راجع: ابن الجيعان (التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية)
و: المقدسى (أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم)..
و: ابن حوقل (المسالك والممالك)..
و: ا لبكرى (معجم ما استعجم)..
و: وياقوت (معجم البلدان)..
و: ابن منقذ (كتاب الاعتبار)..
و: المسعودى (أخبار الزمان)..

قيمتك ترتفع فى قـريتنا عندمـا تزدحم حـيـازتك بالفـدادين، تصبح - وقـتهـا - حـاجـاً دون حج و«صـاحب مـجلس» و«شـيخ عـرب» وأُبهـة؛ حـتى لو كنت دون أصل أو فـصل، أو حـتى مـمن يـهلّون على وسـيـة أولاد فـايز مـسـاء كل خـمـيس ويخرجون وأطباق الملوخية على كفوفهم ورائحة «طشة» تقليتها تعبّق نواحى القرية وتدخل كل بيت..

أصبح الناس أولاد «النهـارده»، وتبدلت خـانة الأصل بالفـدادين، ولامـتـلاك الفـدادين لابد من أمـوال بـ «الكوم»..

وللحـصـول على أمـوال - تشـتـرى الفـدادين - يتطلب

الأمر أن تكون صاحب إرث، أو يوقعك حظك فى رقبة ناقة محشوة عملات ذهبية، مثل التى آلت إلى الحاج شحاته الكفراوى: والتى يتوارث الأولاد فى قريتنا حكايتها عن الأجداد..!!

يومها كان على الأحمر (والتسمية من لون وجهه الضارب بالحمرة؛ ليست حمرة الخجل لكنها خلقة ربنا، وشعره الأبيض الضارب بالصفرة حتى رموش عينيه، مما جعله لا يفتح عينيه فى الشمس إلا وإحدى يديه فوقهما) كان يومها يحفر أساس بيت قديم للكفراوى الذى نوى أن يبنيه لابنه الكبير الداخل على زواج.. وفى ساعة الغداء تركوه وحده فى الشغل، وأرسلوا ابنهم الأوسط بالغداء لعم على: منديل محلاوى ملفوف فيه «بتاو» فلاحى، وقطعة جبنة قريش، وبصلة تفتح نفس عم على..

على رأس الحفر وقف الولد - الأوسط - بصرة الأكل..و:

- الأكل يا عم على، والشاى فى الطريق..

و: كُل لك «لقمة» يا عم على..

وعم على غارق حتى أذنيه فى حَفْر الأساس..

و: الأكل يا عم على يا احمر!!

قالها الولد وكتم ضحكة كانت ستفلت منه، وأحس بخوف ورعب وهو إلى ينظر النازل بفأسه «رايح جاى» فى حفر الأساس، واستعد للهرب من أمامه فى تلك الساعة التى أفلت فيها لسانه وناداه بـ «الأحمر»، إذ من الممكن أن تركب عم على شياطينه ويخفّ عقله - إذا اشتد غضبه - ويقطع الولد بفأسه نصفين فى تلك الظهيرة التى «قيّلت» فيها العفاريت.. لكن عم على لم يثر كعادته عنند مناداته بـ «الأحمر»!!

استمر فأسه فى الطالعة والنازلة..

وفجأة تسنكرت فأس عم على الأحمر فى قطعة صلبة بعد أن أحدثت رنينا غريبا عند ارتطامها بأرضية الحفر، وشخللة، وقطع صغيرة صفراء تخطف البصر وتتساقط بجوار الفأس التى لم يسحبها عم على؛ وتسمّر واقفا ويده تشكل هلالاً مقلوبا فوق عينيه.

انفتح فمه على آخره، والبريق يخطف العينين اللتين تنظران جهة الشخللة ولا تريان الشمس. و«يزْر» عم على عينيه،، قبل أن يفيق من ذهوله كبست عينيه كبشة تراب حفنها الولد فى خفة وسرعة شديدتين ودبّها فى وجهه..

ويتخبط عم على ويسقط بجوار فأسه، وعيناه نار النار، ويجعر بأعلى صوته:

- عينى يا خلق هوووه..

- الحقونى يا ناس!!

وقبل أن يمر أحد، أو يتنبه أحد، أو يلحقه أحد، وفى لمحة برق يخلّص الولد - الأوسط - رقبة الناقة؛ بصعوبة ويضعها فى حجر جلبابه الواسع ويطير كحمامة إلى البيت، وما أن يدخل عتبة الباب حتى يغلقه بالضبّة والمفتاح..

دلق ما معه فى حجر أبيه، وأمه «سخسخت» ووقعت من طولها، أخذتهم المفاجأة:

شحاته الكفراوى يتماسك بالعافية ولا يصدق عينيه..

وزوجته - بعد إفاقتها - تزغرد «في عبّها» ويكاد عقلها يطير من نيلة القدر التي انفتحت لهم دون موعد.

والأولاد - الكبار والصغار - تناولوا بعض القطع الذهبية بين أيديهم: الذي يقرّبها من عينيه، والذي يحاول؛ جاهداً؛ فك المكتوب عليها بالخط الكوفي البارز غير المنقوط: «لا إله إلا الله» .. محمد رسول الله»، وعلى الوجه الآخر «سلطان المسلمين قلاوون يحفظه الله» ..

و.. الولد الأوسط بعد أن نفض حجر جلبابه رجع «حمامة» ليلحق بعمّ على، وكأن ما حدث لم يقع..

وعمّ على أخذ ذيله في أسنانه الى ديوان العمدة..

وأمام العمدة ضرب شحاته الكفراوي كفا على كف، وأكد في أقواله أن على الأحمر «أشعل»، لا يرى الأرانب من البقرة في عز الظهيرة، وأن عقله أصبح مثل عينيه اللتين لا تريان الشمس، وانه «كهين» يلعب بالبيضة والحجر - رغم انه عدو الشمس - مثل أخواله «الشلاقمة» الذين لا تنفّض حنوكهم من القيل والقال على عباد الله،

فكيف تفلت منه زلعة أو رقبة ناقة محشوة بالذهب؛ وزاد الكفراوى أن على الأحمر لو وجد كنزا - كما يفترى على الناس - لقتل قتيلا؛ حتى لو كان ابنه؛ من أجل التكتيم عليه..!!

وشهر وراء شهر..

وسنة تجرّ سنة..

الكفراوية أصبحوا أصحاب أملاك: قيراط، وعشرة، ونصف فدان، وخمسة أفدنة.. و.. و..

و.. وتوسعوا حتى ضربت أملاكهم زمام قريتنا من شرقها الى غربها، وجّراراتهم تزعق فى شوارعها الليل والنهار: حمولة ميّت،أو نقلة فرح،وسباخ، ورمل، وطوب، ومحاصيل.. و.. و.. وجواميسهم وأبقارهم تنعر داخلة خارجة، وجمالهم «تضرب القُلّة» وحميرهم تبرطع - محمّلة أو غير محّملة - وتنهق عاليا مولية وجوهها جهة دوّارهم حتى دون أن يسوقها أحد، حتى «طلوقة» الكفراوية؛ من العجول والأحصنة والحمير والجمال والمعيز؛ ضرب صيتها فى النواحى المجاورة،

وأصبح من يحضر هو أو زوجته - من داير الناحية - لطحن كيلة قمح في ماكينة الطحين؛ الوحيدة في قريتنا وفي نواحي الدايرة؛ يسحب خلفه جاموسته أو حمارته عندما ترفع ذيلها وتطلب الذكر..

توسعوا؛ سبحان العاطي؛ وأصبحوا وسيّة..

وكلما زاد صيت الكفراوية؛ زاد عم على الأحمر (وقد أكلته السنوات وأصبح جلدا على عظم) وعاد في حكاية رقبة الناقة المليئة «فرج اللات» ذهبية، والتي نهبها الكفراوي الكبير - الله يجحمه - على حد قوله، وحتى ينفّض الجالسون من حوله، ويبقى وحده يهش الذباب الذي يزيد طنينه أمام داره ويصنع دائرة سوداء حوله في قعدته..

طلعت المسألة: فجأة؛ في رأس مرزوق الهلالي بعد أن استمع عشرات المرات عن رقبة الناقة من عمّ على الأحمر وهو يغلبه في لعبة «السيجة» ويُقش كلابه كلبا وراء كلب؛ قال لنفسه «ما دامت قريتنا نائمة على كنز فنلعب لعبتنا ونفك رصده ويمكن أن تلعب الدنيا معنا..»..

وفى إحدى العصارى والناس راجعة ببهائمها من الغيطان؛ شاهدوه - مرزوق الهلالى نفسه - يجُر فى ذيله مغربيا يرتدى كاكولة وتحتها القفطان الشاهى المحبوك من وسطه بحزام عريض؛ يُقال إنه موّثق ببركات سيدنا الخضر والصُلاّح، وعمامته بشراريبها فوق طربوشه الأحمر المكبوس فى رأسه وزره الأسود المطوّح إلى الخلف، وفى يده سحبته الكهرمانية الطويلة..

راح الناس وجاءوا على دار مرزوق الهلالى المعبّقة بالبخور الجاوى، ويسأل الجيران زوجته - القاعدة فى الطراوة على عتبة الدار - عن زوجها، فترد؛ وهى تعرف أنها تكذب والجيران لا يصدقوها:

- أصله بعافية..

ويرد السائل؛ بعد أن يكون قد ابتعد عنها بخطوات وقد مسحت عيناه قرار الدار؛ وصوته بالكاد يصل اليها:

- سلامته!!..

وكلما حل الظلام ودخل الليل يفّج البخور من قلب الدار، وتظل الحركة تروح وتجىء داخل البيت،

والكلوبات يشع ضوؤها من فتحة سلم وسط السطح، والناس فوق الأسطح المجاورة تتصنت وتتحفز للإنقضاض عند اللزوم عندما يتم فك الرصد وفتح الكنز وأخذ ما فيه النصيب.

ويوم وراء يوم تغير الحال فى قريتنا: أصبحت لا تنام ليلها، ونهارها كله للشلاقمة..

جار مرزوق الهلالى - هو الآخر - غطس ذات ليلة وجاء وفى ذيله مغربى، وبدأ الحفر؛ أيضا؛ داخل منزله بعد أن باع جاموسته واشترى ورقة بجنيه «سكة زمان» وعلى وجهها جملان أحدهما واقف والآخر بارك أمامه..

والجار الرابع فعلها بعد أن أخذته نار الغيرة..

والعاشر...

وأصبحت قريتنا؛ كلها؛ مهووسة بـ «رقبة ناقة»، أو «زلعة ذهب» أو قدر «تبْر»..

والشلاقمة (نسبة إلى قريتهم «شلقام» المجاورة لقريتنا) عرفوا الفُولة وكيّالها، تركوا النكات الكثيرة

والمتجددة التى يقذفون بها ناس قريتنا، وأصبحوا يصطفون بحميرهم كل صباح عند مدخل القرية يعرضون خدماتهم: الذى يحفر يوميته «كذا» والحمار يوميته» «كذا»، والحريم بجرادلهن لهن - أيضا - يومياتهن بعد أن يكسحن المياه «الراشحة» من الأرض المحفورة..

زاد الطلب على المغاربة، وعلى الجنيه «أبو جملين» وعلى الأُجرية، وعلى البخور الجاوى وكافة متطلبات فك الرصد..

من حظنا أن الشلاقمة بالكوم عند مدخل قريتنا، بدلا من اللف عليهم فى المراكز والبلاد البعيدة، ما أن يخطف الواحد منا رِجْله إلى السكة الجديدة خارج القرية، حتى يعود ومعه لوازمه: مغربى، وبخور جاوى، وحفارين، وحمير لنقل التراب خارج البيوت..

ومرة فى مَرَّة نزل «الشلاقمة» قريتنا فى قوافل منظمة: جماعات جماعات مع حميرهم وفؤوسهم، وحاملات جرادل و«مواعين» لكسح المياه، وبنات

صغيرات يحملن سلال خوص مملوءة بالأرغفة «الفينو» وبائعات جبن وسمن وبيض..

تحولت قريتنا إلى مرتع للشلاقمة؛ ببضائعهم؛ والذين لم ينصبوا خيامهم - كعادتهم الأسبوعية - في السوق كما كانوا يفعلون كل خميس.. تفرقوا ببضائعهم وفؤوسهم وجرادلهم في الشوارع والحارات والأزقة الضيقة..

تنفد بضائعهم فيعودون إلى خيامهم المنصوبة خارج القرية؛ في باحة المستشفى الأميرى؛ ويملأون مواعينهم مرات ثانية وثالثة، وتعود نداءاتهم ترتفع وتتقاطع مع اللّف والدوران..

عدوى «رقبة الناقة» أصبحت كوليرا انتقلت إلى كل بيت في «أعطوا الوقف» .. !!

والناس تفرّغوا للحفر داخل بيوتهم، ولا زرع ولا قلع. والأيام تجرّها أيام..

جاءت مناوبة الرّى، والكفراوية أخذوا حقهم منها وزيادة، وفاتت - المناوبة - ولم تقم معارك؛ مثل كل

مـــرة؛ بين أهالى قـــريتنا على أولوية الرّى، ولم يصل الأمـــر إلى العـمـدة حـتى يحكم لمن عليـه الدور، إذ لم يخرج فلاّح واحد ليسقى أرضه، أو حتى يعمل - أجيرا - فى أرض أولاد فايز التى تركها الأجرية بحثا عن رقبة ناقة أو زلعة حتى ضرب فيها العاقول والحلفاء..

ذبلت قراريط الزرع؛ عدا أرض الكفراوية، وتحولت خضرتها إلى اصفرار باهت ذبلت عافية أعواده، فمالت الأعواد حزينة جهة الأرض العطشى التى فتحت أفواهها على هيئة شروخ امتلأت بثعابين؛ بدأت بدورها - الثعابين - تسعى ليلا نحو بيوت قريتنا..

انتشر الشلاقمة فى قريتنا: باعة، وحفارون، ومغاربة. والناس يستخِفّون من هؤلاء «الغرابوة» الذين لا يستحون من بيع أى شىء، وينفـــرون - فى الوقت نفـــســـه - من الأرض بثعابينها وحيّاتها وشقائها الذى لا ينفض..

وقيراط فى ظهر قيراط، وأصحاب البيوت - المشغولون برقـــاب النوق المملوءات بالـ «فـــرج اللات» الذهبـــيـــة - ينتقلون إلى الجمعية الزراعية الواحد وراء الواحد، وعيونهم يثقل جفونها النعاس وتبربش من قلة النوم.

والحـيـازات الزراعـيـة تنتـقل إلى شلقـامى وراء شلقامى..

حيازة فى ظهر حيازة..

أرض «الأعطوية» ـ نسبة إلى قريتنا «أعطوا الوقف» ـ تنتقل إلى «الشلاقمة» ..

والشلاقمة تفرغوا للزراعة بدلا من «النق» على عباد الله وعلى بلدنا بالنكات التي لا تنتهي :

ـ «غطّوا المعجنة القوّة جاية» ..

و «واحد من أعطوا ...» ..

و «واحدة من أعطو» ..

و ....

و.. فى صباح أحد الأيام؛ وقبل أن تصلب الشمس طولها، كان البوم ينعق فوق النخيل المنتشر فى زمام قريتنا، بينما عم على الأحمر يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، وحوله يتكاثر الذباب كعادته وهو يدعو على الكفراوى أن يجحم الله ذريته؛ شق الجو صوت مفجوع، وآهات ممرورة، وولولة: بيت مرزوق الهلالى جاء عالية أسفله: وهو، ياعين الأم؛ مرشوق فى قلب الأساس

المحفور الذى كان فيه آخر شلقامى يخرج من باب البيت بآخر صفيحتين مملوءتين بالمياه الناشعة ومعلقتين بحبل فى كتفه.. حيطان بيت الهلالى رجّت البيتين المجاورين فانهارا بدورهما.. وبدأت سلسلة انهيارات وولولات مفجعة.. وغطّت شبورة من التراب الكثيف سماء قريتنا، فى الوقت الذى كان فيه الشلاقمة ينتشرون فى أرض الزمام وحيازاتهم فى جيوبهم، ويحفرون آبارا عميقة لرى الأرض التى انفتحت أفواهها على آخرها؛ بدلا من «المناوبة» التى ضاعت، حتى لا تتأخر الزراعة عن مواسمها..!!

المكتشف



رمى اللقمة من فمه عندما زعق مُخ قريب، نفض يديه الاثنتين - رغم إصرار أمه أن يكمل إفطاره - وعدل رقبة جلبابه الواسع، وشدّ كُم فانلته وهو يقفز المسافة من آخر الدار حتى عتبة الباب فى جلبتين؛ مغمغماً: «اللهم اجعله خيراً..!!

وجد الجد الكبير (جارهم الذى غاب ابنه فى البلاد البعيدة منذ شهور) أمام داره؛ يحمل فوق يديه لفافة كبيرة عليها بشكير أبيض، وقد تحولت السمرة الداكنة فى وجهه إلى لون الكُركم، وجسده يرتعش بشدة حتى أن اللفافة تكاد تسقط من فوق يديه، وعيناه تشُران بالدموع.

عرف أن الله استرد وديعته، وأن الغائب في البلاد البعدة لن يكّحل عينيه برؤية مولوده الذى انتظره ـ سنوات ـ بفارغ الصبر.

استجمع شجاعته ؛ لأول مرة في حياته؛ واندفع بقلب جامد نحو الجد الكبير ـ هو وجه الكسوف طول عمره ـ مادا يديه الاثنتين، قائلا في صوت بين الهمس والرجاء:

ـ أجِرْني..

طبع الجد عليها قبلة طويلة قبل أن تنتقل اللفافة؛ داخلها قطعة اللحم الحمراء؛ من يديه المعروقتين إلى اليدين الممدوتين لتستقر فوقهما في هدوء، وفي الوقت نفسه التفت إلى الوراء ليلحق بطرف كُمه الدموع السّاحة من عينيه الغائرتين على خدّه الشاحب..

يحتضن اللفافة في رفق، ويقرّبها من صدره كأنه ملزوق بها، ويداه الاثنتان المثبتتان تحتها قد انتقلت اليهما رعشة الجد الكبير فاهتزتا كأن مفاصلهما سابت، وسرت الرعشة في الجسد كله فانتفض حتى كاد يختل توازنه وينكفئ على «جدر» رقبته، وهو ـ قدر طاقته ـ

يسّمى باسم الله الرحمن الرحيم و«قل هو الله أحد»
ويعض على شفتيه ويبلع ريقه محاولا ترطيب جفاف
حلقة، ويصلب؛ جاهدا؛ طوله وعيناه لا تفارقان اللفافة
فوق يديه مثل كفن اضطر - مهزوما - تقديمه للغريم
لوقف طاحونة ثأر متعطشة للدماء.

تحركت شفتاه، ولم تخرج الكلمات من فمه، وعيناه
بين الجد الكبير وبين اللفافة فوق يديه وبين النسوة
المتشحات بالسواد والنواح، لكن الجد الكبير حزم الأمر
وأشار بيده مشوحًا فى الهواء وعيناه قد غارتا إلى
الداخل تحت كرمشة الوجنتين المرتفعتين:

- الدفن في النُقْله.

وأكمل فى حزن واضح، وفمه مفتوح على آخره
حزنا، ونوبة نشيج متواصل تهزه:

- أبوه لو عرف الخبر يموت فى الغربة.

واستمر - الجد - كمن يخاطب نفسه:

- صحيح المولود ابن ليلته، ولو دفنّاه تحت جدار
الدار يعملها أبوه مناحة يومية بعد رجوعه من غربته.

واشاح - الجد - بوجهه عن النسوة اللأتى تجمعن على

عتبة باب الدار مشيرا لهن بالدخول، وعدل وجهه جهة المدافن.

بعد كل بضعه أمتار يزيد عدد المشيعين واحدا ينضم إليهم، وخمسة وسبعة، وعشرة، وكلما يقترب الموكب الحزين من قاعدين أمام عتبات بيوتهم همّوا بالقيام؛ وداست أرجلهم كلاب «السيجة»؛ ومسحة حزن تعلو وجوههم، وكل منهم يرفع سبابته وينطق الشهادتين فى سرّه وأننا «أموات أولاد أموات»، وما أن يحازيهم الجمع حتى يصبحوا جزءاً منه.

ومع دب الخطوات على الطريق يزداد الموكب طولا وعرضا.. و:

- أجِرْنى..

- أجِرْنى..

خارج القرية، وفى جانب رحباية الوحدة الصحية وقفوا، واصطف أغلبهم فى صفين طويلين، وضع اللفافة على قطعة نجيل خضراء تراجع قليلا ليقف خلفها مباشرة فى الصف الأول، وعيناه مثبتان عليها، وما أن

انتهت الصلاة حتى انفضّ لتستقر اللفافة؛ وفوقها البشكير الأبيض؛ مرة ثانية بين يديه، وقد هدأت هذه المرة ضربات قلبه ولم يعد يرفرف كأنه سيقفز من بين ضلوعه..

على العكس من ذلك تماما: كأن قوة خفيّة تسرى فى ذراعيه وتمتد إلى كيانه كله، تهزه وتمده بقوة لا يدرى من أين تسللت إليه..

على الطريق الرئيسى للقرية اتجهوا يسارا جهة المدافن، يخلفهم غبار كثيف، يزيد ـ الغبار ـ كلما تقدموا على الطريق وبانضمام آخرين: الذى ترك ثوره فى ساقيته، والذى رمى فأسه فى أرضه ولا يزال يرتدى جلابيته وهو يجرى حتى لحق بهم، حتى العربات القادمة على الطريق ما أن يقتربوا منها حتى تهدئ سرعتها وتقف على جانب الطريق حتى يمر الركب.

يهم اليه كثيرون؛ يمد الواحد منهم يديه محاذيتين أسفل اللفافة مباشرة؛ قائلا:

ـ أجِزْنى..

لكنه يبعد ذراعيه وعليهما اللفافة مشيحا عنهم، ومتشبثا بها، وأصابعه تقبض بإحكام على أطراف البشكير الأبيض الذى يغطيها كأنه أصبح - هو وهى - قطعة واحدة ملزوقة بغراء.

المرة الوحيدة التى يهتم به أحد: لا يشيح بوجهه عنه، أو ينطر يده فى وجهه، أو ينظر اليه بتجهم، أو لا يعطى مبالاة لعوده الممصوص ولا لقدميه المغلقتين من باطنيهما، واللتين يتسع الشرخ الواحد فيهما لإصبع كامل ينام فيه!!

المدرسة لم يفلح فيها، وجهده لا يقدر على الزرع والخلع، ودمه ما ساح فى خناقة، ولم تضمه قعدة عرب، حتى لو ضمه طرف قعدة فلا هو هنا ولا هناك. مجرد «ونسه» لأمه تظلل عليها وتتدارى فيها: تغسل وتنشر وتخبز لخلق الله، وتحضر «اللقمة» ولا تمد يدها إليها إلا ويده قبلها..

المرة الأولى التى تتطلع إليه فيها العيون، وتتركز عليه وتفسح له الطريق، ويصبح بؤرة اهتمام أمة لا إله إلا الله.. صحيح للموت رهبة، لكنه تمسّك بحمل اللفافة

حتى بوابة المقبرة.. هناك - أيضا - ولأول مرة يصّر على الدخول، يجلس على بابها الصغير، وعلى ركبتيه اللفافة بداخلها قطعة اللحم الحمراء، يرفع البشكير الأبيض ويناوله لواحد من الواقفين، يفك أربطة اللفافة ويناولها - لأول مرة منذ كلبشها فى يديه - إلى «التربى» الذى فرغ من تسوية التراب، وأمال الوجه؛ برفق شديد؛ جهة القبلة، وبدأ يرّص قوالب الطوب على جانبيها ثم فوقها بطريقة عرضية مقفّصة.

لم يخرج من المقبرة إلا فى ذيل «التُربى»..

بدأوا فى إغلاق الباب بالطوب الأحمر وتليسه بالأسمنت المخلوط بالرمل ورّشوا ماءً حولها..

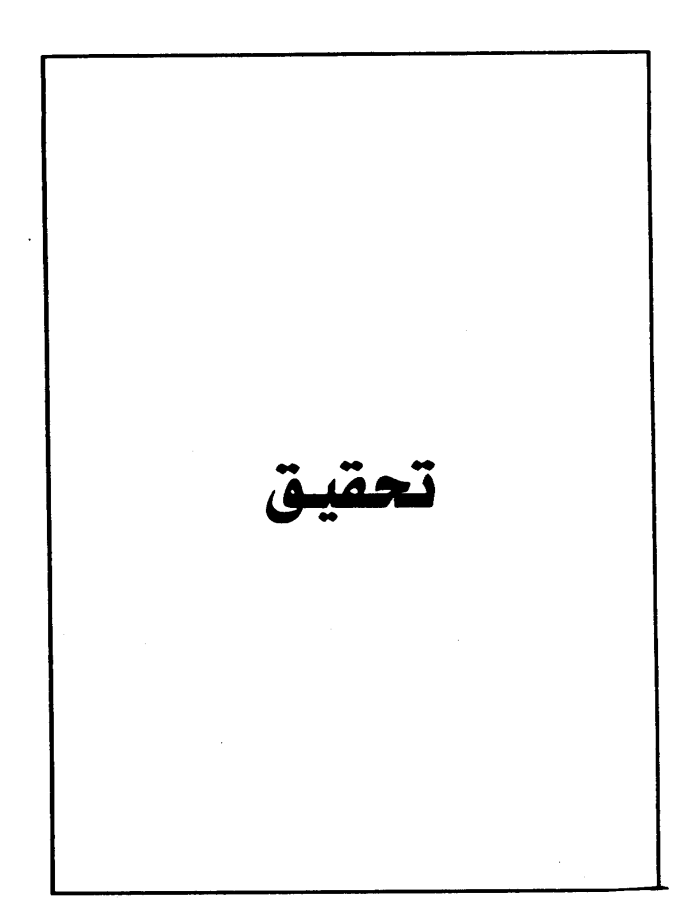
ناول الجد الكبير «سيّدنا» المقرفص فى ركن يقرأ آيات من القرآن الكريم فى سرعة شديدة كأنه آلة تسجيل على السريع؛ بعدها امتدت يد وراء يد شادة على يد الجد الصالب عوده مثل شجرة كافور رغم حزنه المكتوم ونشيجه الذى يكاد ينفجر..

ومرة ثانية يجد نفسه وحيداً، بعد أن تفرّقوا الواحد فى

ذيل الواحد، وأخذ يجر نفسه فى تخاذل شديد فى طريق العودة إلى القرية.

من يومها؛ ما أن يرتفع صوت ميكروفون جامع قريتنا معلنا حالة وفاة حتى ينفض يديه الاثنتين مما بهما، ويعدل قبّة جلبابه الواسع، ويهم مسرعا حتى يضم اللفافة إلى صدره إن كان «المرحوم» رضيعا، أو يتشبث بمقدمة «الخشبة» على كتفه غير مبال بمن ينهر يده قائلاً «أجرنى» حتى يصل النعش باب المقبرة، ويشمر جلبابه ولا يخرج إلا فى ذيل «التربى»، بعدها يجر رجليه وحده دون كلمة خارج الجمع موليا وجهه عائدا على قدميه، وإن أسعده زمانه يتعلق بمؤخرة عربة نقل يتصادف مرورها فى طريق الرجوع.

* * *


تحقيق



زرّ عَمدة قريتنا عينه اليسرى السليمة؛ حتى انطبق جفناها تماماً؛ وفى الوقت نفسه رفع حاجب عينه الكريمة اليمنى، وانشرح فمه الواسع عن ابتسامة رضى أظهرت (الإبتسامة وشرخة الفم الواسع) نتوءات سوداء فى الفكّين كأنها خرابات مظلمة مهجورة وبعيدة عن العمران.

واتجه؛ عمدة قريتنا؛ وهو يرفع قامته إلى صاحب الكتفين المرصعتين بالنجوم والطيور، وشرائح الصدف الملونة تدندش الجهة اليسرى من صدره، والذى تتدلى من جانبه الأيسر طبنجة «حلوان»، وقال وابتسامة الرضى ماتزال تكسو وجهه:

ـ تمام التمام يا باشا..

وقـدّم إليـه «كـومـة» أوراق بأسـمـاء رجـال القـرية جميعهم؛ فرداً فرداً.. «كومة» الورق التى كتبها مؤذن الجـامع ـ الوحـيـد فى قـريتنا ـ والذى فى يده؛ أيضـًا؛ مـأذونيـة القـرية والسـبع عـزب المـجـاورة على طول الخط، والذى داخ السبع دوخـات؛ من أجلهـا؛ فى ذيل شيخ الخفراء وخفراء الدرك، حتى تّمموا على الأهالى كلهم، حتى مراكبى المعدية (التى تربطنا بالبّر الشرقى) بصم عليها ـ أيضـًا ـ بابهامه الأيسر بعد أن تفل المأذون على بطن إصبعه ومرّر عليه قلمه الكوبيا عدة مرات ـ كـانت تغيظ المراكبى فينقصع للوراء ضـاحكاً ـ حـتى أصبح بطن إصبعه فى لون حبة الباذنجان الزرقاء.

أوقف المـراكـبى مـعـديتـه؛ وربطهـا فى سلسلة على شـاطىء بحـر يوسف؛ وجاء وفى ظله مـسـاعـدة «النص» النحيل؛ كما عود قصب؛ والذى لا يزيد طوله عن عدة أشبار..

حـتى من طلعوا لتقليب أرزاقـهم؛ وصلتـهم مـراسـيل بشـارة بمـا سـتـوزعـه الحكومـة من أقـمشـة، وبطـاطين،

وخيام، وصناديق «مصندقة» من خيرات الله، ووعْدها بـ «دهبية» تربطنا بالبِّر الشرقى بدلا من معدية الدينارى؛ المطينة بطينها؛ والتى طبّت بحمولتها أكثر من مرة فى بحر يوسف وراح فيها من راح.. وأن الحكومة «بنفسها» ستوزع هذه الخيرات على أهل القرية على حسب الرؤوس..

كل بيت بمن فيه..

مع أن الفيضانات لم تحلّ مواسمها، ولم تجرف بيوت قريتنا هذه الأيام.. الحكومة فى قلب «الرحباية»، والناس «ضربوا» حولها دائرة.. والباشا؛ صاحب الكتفين المرصعتين بالنجوم والطيور والذى تتدلى جانبه الأيسر طبنجة «حلوان»؛ يستعرض من الصفوف التى تشكل دائرة يزداد اتساعها مع تعدد الصفوف.. سهم الله نزل على الجميع، عندما بدأ «الباشا» المرور على أول صف فى قلب الدائرة، وخلفه «عزوته» من رجال الحكومة..

ينظر «الباشا» فى كومة أوراق أخرجها من مظروف فى يده اليسرى، وينقل عينيه المفنجلتين إلى الصف..

ومن الصف إلى الأوراق، ومنها إلى الصف الذى أمامه مباشرة.

يدب عينيه فى أهل القرية أمامه، واحدا واحدا..

وقبل أن يكمل دورته على الصف الأول، كان «النص»؛ النحيل كما عود قصب؛ لم يعد يشب على أطراف أصابع قدميه لتطول رأسه وسط الرجلين الذين عن يمينه وعن شماله، إذ انسّل - خلسة - من الصف الأول فى قلب الدائرة إلى الصفوف الخلفية مع الصغار والحريم!!

والباشا؛ صاحب الكتفين المرصعتين بالنجوم والطيور؛ ينتقل من صف إلى صف ثالث..

ورابع..

وخامس..

ويعود؛ وموجة غضب تكسو وجهه وزفيره يحرق بلدا بحالها؛ إلى منتصف الدائرة، كأن النجوم والطيور تكاد تسقط من فوق كتفيه..

يقعد على كرسى فى قلب الحلقة..

ويقوم..

ويعيد اللّف على الصفوف المتراصة، وعيناه تنتقلان من الأوراق التى فى يده إلى الصفوف، وممن الصفوف إلى الأوراق التى فى يده..

ويعود إلى كرسيّه فى قلب الدائرة..

والشمس تبخ نارها، ويشُر العرق سيوراً حادقة فوق أبداننا الضامرة انتظاراً لمعونة الحكومة..

واللف، والدوران..

ويهم عمدة قريتنا؛ وقد كسر عينه اليسرى السليمة حتى انطبق جفناها؛ مخترقا صفوف الدائرة، فجأة: يجذب «النُص» من شاله الذى يغطى جبهته، ويدفعه من قفاه ليأخذ بّراد الشاى من يد واحدة من البنات ويصبّه للباشا وللضيوف..

وفى طرفة عين حدث ما حدث:

ما هى إلا غمضة عين، حتى كان الشعاع الحارق قد مرق بين «النُص» على نحافته وقُصر قامته الشديد من جهة وبين الباشا الضابط على ضخامته والصورة

التى فى يديه من جهة ثانية: طار الشرر من العينين المفنجلتين، وما أن وصل إلى «النُص» حتى رمى الصينية بأكواب الشاى «الملهلبة» جهة الباشا قاطعا حدة الشرر، ويبرطع قافزاً؛ رجلاه القصيرتان تضربان مؤخرته البارزة للوراء مثل مؤخرة قرد - فى طرقعات مسموعة ويختفى ولا يظهر له أثر..!!

فى اللحظة نفسها كان رَجل الحكومة؛ الباشا؛ يرمى الأوراق فوق كرسيّه وراحت يده اليمنى إلى جانبه الأيسر، وسحَب زناد طبنجته «حلوان» إلى الخلف، وطلقة فوق رؤوس الخلق، وثانية جهة النخيل خلف الكائن النحيل الذى اسمه «النُص»، و «النُص» لا أثر له..

فى رمشة عين حدث ما حدث..

ونزل سهم الله على الجميع..

كأنها خَرْجة دفن ميت..

حتى عُمدة قريتنا زرّ عينيه الاثنتين ومال بوجهه جهة الأرض رُعباً من الرصاص وخوفاً من أن تلتقى عيناه بعينى الباشا المفنجلتين اللتين تقدحان شررا..

وأجارك الله: «س» و «ج» مع الصغير قبل الكبير..

حتى مع العمدة نفسه وأمام الملأ..

ومع زوجة «النِص»..

وأولاد «النِص»..

والنجع كله «أطرش» فى زفة!!

* * *

مساء ذلك اليوم كنا ملتفين حول عُمدة قريتنا فى ديوانه؛ فى نور «الكلوب» المعلق فى مسمار مغروس فى لحم شجرة الجميز العتيقة؛ وآذاننا مشرعة تكاد تطول وجهه فى انجعاصته فوق دكته الخشبية، وهو يحكى عن العفريت «النِص» الذى دوّخ الدنيا كلها، وعن صراف الأوقاف الذى وجدوه قبل أيام فى زمام قريتنا - ملقى على ظهره، وفمه مفندق وعيناه مفتوحتان على آخرهما، وكيف أن صورة وجه «النِص» ويده وزراعه التى طولها «شبر» كانت آخر ما التقطته العينان المفتوحتان على آخرهما.. وكيف تقدم الطب الشرعى فى بلادنا حتى كبّر الصورة آلاف المرات؛ وظهر فيها

الفاعل وهو يهوى بمطواة قرن غزال على ضحيته فى طعنات متتالية حتى أجهز عليه..

* * *

ومتى تجيئ البشارة؟!!

كذا وعشرون ليلة طويلة عريضة، سوادها أسود من قرن الخرّوب؛ منذ أن أسرجنا خيولنا - يتقدمنا أبى بهيبته وأُبّهته - إلى أعتابهم..

كأن الليالى الطويلة التى مرّت لوحة مُقبضة لا تتزحزح من أمام العينين؛ تقبض القلب وتعصره وتنشره وريقة شجر ناشفة وغير متماسكة فى مهب ريح صرصر عاتية..

لم نجد - يومها - رغم الموعد المضروب رجالاً فى انتظارنا، مجرد الأب؛ الذى لم يتكلم بعد ردّ السلام كلمة واحدة؛ فى «بيجامة» مقلمة بخطوط عريضة فاقع لونها، و «شبشب» يجرّه فى قدميه فيحدث طرقعات شديدة كلما

تحرك - الأب - جهة الداخل لإحضار كوب ماء..!!..
والأم (بنظارتها الطبيّة السميكة التى غطّت نصف وجهها) أخذت القَعْدة كلاماً فى كلام..

وقع قلبى فى قدمى عشرات المرات وأبى يحرقنى بين لحظة وأخرى بنظرات صارمة؛ لها ألف معنىً ومعنى؛ كلما ارتفعت طرقعات «شبشب» والدها إثر غيابه المتكرر فى الداخل وعودته تسبقه طرقعات لاسعة وفى يده كوب ماء!!

لم تُنحر ذبائح، ولا فجّت رائحة غداء..

مجرد شاى لم يعدل دماغ أبى، الذى تنحنح - بعد أن عاد من بيت الأدب - ليدخل رغم الاستياء الواضح عليه؛ فى الموضوع وطلب القُرب مباشرة:

- ١٥ «باكو» مباركة عريسنا؛ وأشار ناحيتى؛ للمحروسة ربة الصون والعفاف، وإن كانت قيمتها فى عينّي ولدنا بالدنيا وما فيها.

- ٢٥ «باكو» مقدم صداق، يتم تسليمه بمجرد البشارة.

- ٣٠ ليلة فرح، يحييها شمندى القناوى وأهل طرب ومغنى «على قفا من يشيل من ساعة البشارة حتى ليلة الدُخلة.

- ٥ فدادين موالح طارحة يتم تسجيلها باسم ولىّ العهد بمجرد تشريفه بعون الله.

وعدل؛ أبى؛ عباءته وهو يرجع للوراء قليلاً، ثم استمر معددا لزوم الفرح حتى وصل إلى ليلة الدُخلة التى تضمنت مشتملاتها:

- ٣ «بطوشه».
- ٥ خرفان لبّانى.
- ١٠ جديان مخصية و «مقرّشة».
- ١٥ أتوموبيل «بيجو» لنقل المعازيم وملازمتهم والعودة بهم بعد أن يبّيض العريس وجوهنا.
- ٣ صنادل تحت تصرّفكم يوم الدُخلة، لتعدية بحر النيل حتى مراسى ديارنا، والعودة - بعد الواجب - إلى البرّ الثانى..

وتوالت نسائم الكرم ثرّية فضفاضة من أبى، رغم معارضته عندما باحت له أمى بسٌرى الذى أصبح

مكشوفاً وائتمنتها عليه وهى بجانبى فى مستشفى الطَلَبَة بعد «عملية اللوّز»، سمعتْنى وقتها أهذى باسم حبيبتى تحت تأثير البنج، لزقت «همت» فى ذاكرتها بعد يأسها من تنحية الموضوع جانبًا.. عدّدت لى بنات خالتى: «مال وجمال» .. وكل فتحة سيرة تقول: «أخاف تسمّك»!!.. وفتح أبى - هو الآخر - السيرة، واستعداده «اليوم قبل بكره» لزفافى على أحلى بنات عمد الناحية كلها: شلقام، وساقولا، وبردونة الأشراف، وأشروبة، وجَلْف وبنى واللمس بلد نعيمة والمغنواتي حسن .. ويغرينى بشكل مستمر وهو يؤكد: مؤصلات، وحسب ونسب، وأبعاديات، و.. و..

ويلسعنى أبى وهو يكمل؛ فى وضوح وحزم موجها كلامه إلى الأم؛ التى أكلت النظارة الطبيّة السميكة نصف وجهها؛ قبل أن يعدل عباءته فوق كتفيه وينهض فننهض كلنا معه:

- وعليكم مثل ما علينا..

صرخة ملتاعة مزّقت جوانحى وقتئذٍ: «يا أبتاه.. إن العدل عظيم»فلماذا عليهم مثل ما علينا يا أبى ووضْع

العُقدة فى المنشار؟!!»..

فى سكة الرجوع؛ وضح الإستياء الشديد على أبى عندما أشار أحد الأعمام إلى القسمة غير العادلة، وتملكتنى رعدة شديدة وأبى يحرجنى بنظرة تختلِف ١٨٠ درجة عن البسمة التى رمانى بها عندما تقدمت الركب فور وصولنا، وطرقتُ باب دارهم، تجلّت حبيبتى فى طلّتها مثل قمرٍ، أسارير وجهها كلها متهللة، ودخلت مسرعة والفرحة تِنط من عينيها معلنة قدومنا..

وقتها همس أبى وهو يرمينى بنظرة مفرحة:

ـ طالع لجدِّك «حرّيف نسوان»..!!

وتغيرت النظرة ونحن نهم بالركوب، ومال جهتى هذه المرة وأسنانه تصطك من الغيظ:

ـ أصحابك «أى كلام» والأيام بيننا..!!

من ساعتها انتظر أى داخل إلى ديارنا، وعينى على السكة الجديدة، وأبحر مع المراكب فى بحر النيل، وقلبى ـ رغم البعاد ـ يحدثنى أننا سنتواصل وسيرتاح البال، وأن التناغم المحسوس بيننا مستمر ومتفاعل حتى على البُعد.. وانتظر.. أراها فى كل قادمة حتى تتضح

معالمها ولا أجد «النغزة» فى وجنتيها مثل وشم يزيّن تفاحة كل خد، ولا العينين المكحولتين بالكبرياء، ولا الأهداب الرامحة، فأشيح الوجه إلى ثانية قادمة قد تكون المُراد، وما أن تظهر قسمات الثانية حتى اتحول ببصري إلى ثالثة طفّ خيالها على البُعد.. وتاسعة وعاشرة.. و..

ومع تعدد القادمات تروح المقارنة فى صف حبيبتى مائة فى المئة: الشعر الخيولى، والوجه المشمس، والقوام الصاعق، وحقيبة الكتب المنكمشة فوق الصدر وتحت اليدين، والفم قليل الكلام، وأمواج الشوق المتلاطمة والسهام النافذة جارحة القلب وآسرته..

وها هو يوم بارد غير مشمس، وليلة أخرى طويلة عريضة - مثل غيرها من الليالى الطويلة - لا يؤنسها قمر، و «زّن» أمى متواصل على رأسى حتى تدخل الفرحة قلبها وترى «خِلْفتى»، وعيناى لا تملان البحلقة فى العربات القادمة وفى مراكب بحر النيل، وقلبى يقول إن التى انغرست وتغلغلت وتربعت وتسلطنت فيه ستجىء، ولا أدرى لماذا ..حتى الآن - تأخرت البشارة.

محتويات :

١ - إهـداء ٣

٢ - مربط الفرس ٥

٣ - الأستاذ ٢٧

٤ - الشلاقمة ٣٩

٥ - المكتشف ٥٥

٦ - تحقيق ٦٥

٧ - ومتى تجيء البشارة ؟!! ٧٥

من أعمال الكاتب:

- الذى علّم الحزن القمر (مجموعة قصصية)
- الليالى الطويلة (مجموعة قصصية)
- عـاقبـة الغـرور (رواية لـلأطفـال)

تحت الطبع:

- عين طفل (مجموعة قصصية)
- السمكة والصياد (قصص للأطفال)
- هديل اليمام (قصص للأطفال)
- الصحافة الأدبية.. فى مصر:

من التثقيف إلى التسييس «دراسة».

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ٨١٨٦ / ٢٠٠٠

I.S.B.N 977 - 01 - 6680 - 4